مجلة المرافئ

العدد : ١٩٩ الموافق في صفر ١٤١٩ هجري ١٩٩٨/٦ ميلادي

عنوان المقال : مرتكزات التربية قبل المراهقة	بقلم : أ. متولي موسى

تعتبر فترة الشبيبة مهمة في حياة الإنسان ، إذ أن الأصل في هذه الفترة أن أحد الجنسين لا ينظر إلى مفاتن الجنس الآخر بشهوة ، كما أنه في هذه المرحلة تكون للبيئة المحيطة تأثيراتها البالغة على توجيه السلوك ، حيث تتمايز في هذه المرحلة كثير من الأمور ، وتتضح المفاهيم ، وينتقل الإنسان بإدراكه من المفاهيم البسيطة المجردة ، إلى المفاهيم المرتبطة بالواقع الذي يعيشه والبيئة المحيطة به ، فيميز ما هو ممكن وما هو غير ممكن ، والخيالي من الواقعي ، وتتطور نظرته إلى المستقبل وما غاب عن الحواس ، وينضج سلوكه ومعاملته تدريجياً كلما اقترب من سن البلوغ والتعقل .

أولاً : بعض النصوص الخاصة بالمرحلة وفقهها

١- روى أبو داود في سننه - باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ؟ - : « قال النبي ﷺ : مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » . وفي رواية أخرى قال ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »[١] .

نقل الخطابي ما ورد في المختصر عن الإمام الشافعي في شرح هذا الحديث قال : « وعلى الآباء والأمهات أن يؤدبوا أولادهم ويعلموهم الطهارة والصلاة ، ويضربوهم على ذلك إذا عقلوا ، ويعرفوهم سائر الواجبات الدينية ، وتحريم الزنا واللواط والخمر والكذب والغيبة... » ؛ ونقل ما ورد في العارضة شرح الترمذي للحديث بقوله : « وهذا على طريق التمرين على الطاعة ، واعتقاد العبادة ليبلغ حد الوجوب فيسهل عليه »[٢]. ويرى الإمام النووي أن الاستدلال بالحديث يتناول بمنطوقه الصبي والصبية في الأمر بالصلاة والضرب عليها ، وفيه زيادة أخرى وهي التفريق في المضاجع ، وقوله : " مروا " هو أمر للولي ، فأوجب على الولي أن يأمر الصبي ، وهذا الأمر والضرب واجب على الولي سواء كان أباً أو جداً أو وصياً أو قيماً من جهة القاضي[٣] . وفيما يتعلق بالتفريق في المضاجع قال المتاوي : " أي فرقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشراً هذا من غوائل الشهوة وإن كنّ أخوات ؛ قال الطيبي : جمع بين الأمر بالصلاة والتفريق بينهم في المضاجع في الطفولة تأديباً لهم ، ومحافظة لأمر الله كله ، وتعليماً لهم والمعاشرة بين الخلق ، وأن لا يقفوا مواقف التهم فيجتنبوا المحارم "[٤].

٢- وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي : « خيّر النبي ﷺ غلاماً - أي طفلاً دون التاسعة من العمر - فقال له : يا غلام ! هذا أبوك ، وهذه أمك ، فخذ بيد أيهما شئت » . وفي الحديث دلالة على أن الطفل إذا ميز خُيّر ، وللعلماء آراء في بداية سن التمييز ، فأكثرهم على قول إسحاق بن

راهويه : « حدّ التمييز من السبع سنين »[٥]. وقد انتصر ابن القيم لهذا الرأي فقال : « وأما تقييدنا له بالسبع ، فلا ريب أن الحديث لا يقضي بذلك ، ولا هو أمر مجمع عليه ، فإن للمخيرين قولين ، أحدهما : أنه يُخير لخمس - ذكره حرب في مسائله - ، ويجتمع لهؤلاء بأن الخمس هي السن التي يصح فيها سماع الصبي ، ويمكن أن يعقل فيها ، وقد قال محمود بن الربيع : عقلت عن النبي ﷺ مجة مجها في فيَّ وأنا ابن خمس سنين **[أخرجه البخاري]** . والقول الثاني : أنه إنما يُخير لسبع ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق - رحمهم الله تعالى - ، واحتج لهذا القول بأن التخيير يستدعي التمييز والفهم ، ولا ضابط له في الأطفال ، فضُبط بمظنته وهي السبع ، فإنها أول سنّ التمييز ، ولهذا جعلها النبي ﷺ حداً للوقت الذي يؤمر فيه الصبي بالصلاة » [٦].

٣- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » **[رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح]** وقد خرجه الترمذي من رواية حنش الصنعاني عن ابن عباس ولفظ حديثه : « يا غلام أو يا غليم أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت : بلى ، فقال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله بجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » **[قال ابن منده وغيره : أصح طرق هذا الحديث هي هذه الطريق التي خرجها الترمذي]** .

وقال الحافظ ابن رجب : « وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة ، وقواعد كلية من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش ، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه . قلت : وقد أفردت لشرحه جزءاً كبيراً »[٧].

٤- وتنتهي هذه الفترة الهامة بالبلوغ والتعقل ، قال تعالى : { **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم من بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم**

عنوان المقال : مرتكزات التربية قبل المراهقة	بقلم : أ. متولي موسى

كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم } [النور:٥٨-٥٩].

يتبين من هاتين الآيتين أن الأطفال المميزين الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان على أهليهم داخل البيوت ، إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها ، وهي : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الأزواج في ثياب النوم عادة ، ووقت الظهيرة عند القيلولة ، حيث يخلع الناس ملابسهم ويرتدون ملابس النوم للراحة عادة ، وبعد صلاة العشاء لنفس السبب.

وقد سمى الله تعالى هذه الأوقات " عورات " لانكشاف العورات فيها ، وفي هذه الأوقات يجب على الأطفال المميزين الذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا فيها ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم ، وهو أدب يغفله كثير من المسلمين في حياتهم المنزلية هذه الأيام ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المخاطر ، والعليم الخبير يؤدب صغار هذه الأمة بأدب الاستئذان في هذه العورات الثلاث ، ولم يجعل استئذان الصغار في كل حين رفعاً للحرج ، فهم كثيرو الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم ، وبذلك جمع الشرع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذن الصغار كما يستأذن الكبار ، إذ أن الطفل إذا بلغ ، فيجب عليه الاستئذان في كل حين .

خلاصة : أرشدت النصوص إلى أن الإدراك عند الطفل يظهر بصورة واضحة عندما يبلغ سن سبع سنوات ، وينمو الإدراك حتى يصل إلى حد تحمل المسؤولية ، ببلوغ سن التكليف الشرعي ، وأن الفكرة النظرية إذا مورست في الحياة العملية فإنها تأخذ آثارها في السلوك ، وتبقى آثارها العملية ماثلة في الوجدان لا تزاحمها الأضداد ولا يطغى عليها النسيان ، لأنها حاضرة غالباً في مركز الفكر - أو كما يقول علماء النفس في بؤرة الشعور - فهي تستمد من العمل بها قوة وثباتاً وإشراقاً حتى تصبح للنفس ملكة وخلقاً ، وكذلك يستمد منها العمل سهولة ويسراً عند العودة إليها مرة أخرى .

ثانياً : أهم مرتكزات التربية في هذه المرحلة

على المربين أن يتولوا الطفل في هذه المرحلة الهامة من حياة الإنسان ، بالقيام على شؤونه ، وإصلاح سلوكه وخلقه ، حتى يفارق المرحلة على أصلح ما يكون وأن ينتبهوا إلى مرتكزات التربية التي نوجز أهمها فيما يلي :

١- **إيقاظ المشاعر السامية :** وذلك بالتنشئة شيئاً فشيئاً لبلوغ الغاية ، فالممارسة العملية توقظ

المشاعر ، وترشد السلوك ، بحيث تصبح الفكرة النظرية ماثلة في الوجدان... وكلما ازداد تكرر العمل بمقتضى تلك الفكرة ازدادت قوة في نفسها ، وازداد استعداد الطفل للقيام بالعمل بها دون تكلف ، كما هو الشأن في الصلاة التي يُؤمر بها ابتداءاً من بلوغ سبع سنين ، ويتكرر ذلك حتى يزداد العمل بإقامتها لصوقاً بالنفس ، بحيث يصبح انتزاع إقامتها من نفسه ومفارقته لها أشبه بانتزاع غريزة من الغرائز ، وهكذا بالنسبة لبقية الأفكار والمفاهيم الأخرى مثل : الصدق ، والأمانة ، وحب الآخرين ، والأخوة...

فتكون مهمة المربي غرس مفاهيم الإيمان وما يطالب به الإسلام في قلب ونفس الطفل ، وتعويده على ممارسة ذلك في واقع السلوك ، فذلك يزيد الإيمان ، ويعمل على إكساب الطفل الخلق الحسن ، إذ أن الخلق هو جوهر الإسلام ، فقد ورد عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : سئل النبي ﷺ : أي المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » [رواه مسلم في صحيحه] ، بل لقد ربط النبي ﷺ بين بعثته وصالح الأخلاق فقال : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » [حديث صحيح راجع الجامع رقم ٢٣٤٥].

٢- تنمية المواهب والاستعدادات والطاقات : وذلك باكتشافها ورعايتها وتوجيهها لما يحقق الخير والنفع في المستقبل ، وهذه المهمة ذات أثر عظيم في حياة الإنسان ، لا يمتد إلى نهاية الأجل في الدنيا فقط ، وإنما يمتد إلى حياته في الآخرة ، وهي ليست مهمة سهلة ، بل هي من أشق المهام التي ينبغي النهوض بها على أفضل وجه ، فهي تحتاج إلى قوة ملاحظة وخبرة ، بالإضافة إلى مراقبة الطفل لأوقات طويلة ، نظراً لأن الأمر يتعلق بالنفس الإنسانية في أدق مراحلها ، فالطفل في هذه المرحلة لا يستطيع التمييز الدقيق بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبالتالي لا يستطيع أن يعبر تعبيراً دقيقاً أو يسلك سلوكاً صحيحاً في أغلب الأحايين .

فلا بد للمربي من ضرب الأمثال ، وتشبيه المعقول بالمحسوس ، وأن يستخدم أسلوب الحوار والسؤال والجواب والقصة ، وأن يستخدم الإشارة الحسية لترسيخ المعنى في الذهن ، وأن يراعي الفروق بين الأفراد ، وأن يخاطب كلاً بما يلائمه .

٣- توجيه الغرائز والعواطف وحفظها ورعايتها : بتحبيب الطفل في طاعة الله تعالى ، واتباع رسوله ﷺ وفعل الخير وعمل الصالحات... وذلك بقيادته إلى ذلك بزمام الرغبة فيما رتب الله تعالى على ذلك من حسن الجزاء والمثوبة في الآخرة . وتخويفه من البعد عن الله تعالى ، وإضاعة فرائضه ، وارتكاب ما نهى الله تعالى عنه من الشرور والرذائل .

عنوان المقال : مرتكزات التربية قبل المراهقة	بقلم : أ. متولي موسى

فمما لا شك فيه أن الرغبة والرهبة نزعتان فطريتان في الإنسان ، فهو بطبيعته يرغب فيما يحب ، ويخاف مما يكره ، فلا عجب أن يستفيد المنهج التربوي من هاتين النزعتين لدفع الإنسان إلى فعل الخيرات والطاعات واجتناب الشرور والآثام .

ومادامت هناك قوى شريرة متعددة توسوس في الصدر لتبعد الإنسان عن طريق الخير ، فلا بد من بواعث صادقة ، وحوافز قوية يستطيع بها الناشئ أن يواجه المغريات والمعوقات ، فعلى المربين أن يسلكوا سبيل " الترغيب والترهيب " لتوجيه الغرائز والعواطف ، وأن يتذكروا قول القائل : " لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق " .

٤- **التنشئة على وضوح الفكر ، ودقة التعبير ، وإرادة الخير** : وذلك عن طريق بيان المفاهيم النظرية والتدليل عليها بما يدركه الناشئ ، فهناك نوع من المعلومات الدينية يحمل في نفسه شاهد صدقه ، وطائفة من الأخبار الصادقة في الوحي تحققت بالفعل وَفق ما أخبر الوحي به ، فعلى المربين أن يختاروا من هذه الأخبار ما يقر في نفس الناشئ وضوح الفكرة ودقة التعبير عنها ، ولا يتسع المجال هنا لضرب عدد من الأمثلة من القرآن والسنة ، ولكنني سأكتفي بمثال واحد. فقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : { **اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** } [طه:٤٣-٤٦]. ومن خلال هذا الموقف فهم موسى عليه السلام معنى معية الله تعالى ، حتى أنه توضحت له الفكرة ، فعبر عنها بدقة ، عندما خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل وتبعهم جنود فرعون حتى وصلوا البحر : { **فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون** } [الشعراء:٦١] ، ولكن موسى عليه السلام الذي استوعب الدرس السابق كان جوابه : { **قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين** } [**الشعراء:٦٢-٦٥**] .

على أن كل مرتكز من هذه المرتكزات يتطلب المعالجة على محورين :

الأول : **المحور الفكري المعرفي** : والذي يهدف إلى تنمية الإدراك العقلي بطريقة تنبه الطفل إلى المعرفة النافعة والتشوق إليها ، وتعرفه على وسائل تحصيلها .

الثاني : **المحور السلوكي الأخلاقي** : والذي يعمل على تحقق الطفل بالسوية الشخصية ، ويحافظ على التوازن الروحي والمادي في حياته ، وتوجيه السلوك وفق مقاييس الحق والعدل والخير ، والتحقق بالأخلاق

الصالحة ، وفعل الخير بالقول والعمل .

وعلى الله تعالى قصد السبيل والتوفيق والسداد .

الهوامش :

(١) صحيح سنن أبي داود ، الشيخ ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، حديث رقم ٤٦٥ ورقم ٤٦٦ .

(٢) معالم السنن للخطابي على هامش سنن أبي داود ، ج١ ، ص ٣٣٤ .

(٣) المجموع للإمام النووي ، ج٣ ، ص١١ .

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب أبادي ، ج٢ ، ص ١٦٢ .

(٥) سبل السلام شرح بلوغ المرام للإمام الصنعاني ، ج٣ ، ص ١١٧٦ .

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ، ج٥ ، ص ٤٧٨ و ٤٧٩ .

(٧) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، عبد الرحمن بن رجب الحنبلي ، ص ١٧٤ .